من الإعجاز البلاغي في سورة القارعة

د/ فاطمة محمد المهدى
مدرس البلاغة والنقد

الحمد لله الذى أنزل القرآن ، وجعله لكل شىء تبيان ، والصلاة والسلام على من خلقه القرآن ، وجرى على لسانه جوامع الكلم وروائع البيان ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان .

وبعـــد ...

فان القرآن الكريم بحر زاخر بالكنوز والنفائس ، وكلما غصت فى أعماقه ــ التى لا قرار لها ــ وجدت الدرر الثمينة ، والكنوز النفيسة .

وهذا بحث موضوعه :

« الاعجاز البلاغى فى سورة القارعة » .

وقد بدأت البحث بتعريف للسورة من حيث مكيتها ، وعدد آياتها ، وصلتها بما قبلها وما بعدها ، وأغراضها وغير ذلك .

ثم تحدثت بعد ذلك عن أوجه الاعجاز البلاغى فى السورة فبدأت بالحديث عن بلاغة التراكيب فى السورة من حيث خبرية الجمل أو انشائيتها ، وتعريف الكلمات أو تنكيرها ، وتقديم بعض الكلمات على بعض .

كما وضحت ما جاء فى السورة من اسناد حقيقى ومجازى وبينت مواضع الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب فى السورة الكريمة .

وكان من وجوه الاعجاز البلاغى فى السورة التصوير البيانى الرائع الذى جاء فى صورة التشبيه والمجاز اللغوى والكناية .

وكان لكل أثره فى تصوير المعنى ، وابرازه فى صورة محسوسة ملموسة .

كما كان من وجوه الاعجاز البلاغى المحسنات البديعية الجميلة التى كان لها دور بناء فى افادة المعنى ، واثراء الأسلوب ، وقد جاء منها فى السورة التقسيم والمقابلة ، والادماج والاستخدام والفواصل وغير ذلك مما جاء لمقتضيات معنوية اقتضاها المقام واستدعاها الحال ، فكانت مظهرا من مظاهر الاعجاز البلاغى فى السورة الكريمة .

ثم تحدثت بعد ذلك عن رعاية التسلسل المعنوى بين كلمات الآية ، وآيات السورة مع ملاءمة نغمة السورة وجرسها لموضوعها .

ثم تحدثت عن الرقة والجزالة مبينة موطن كل منهما فى السورة .

ثم ذيلت البحث بخاتمة وفهرس للمصادر والمراجع .

هذا وقد بدأت البحث ومرجعى الأول فيه كتاب الله أنهل من معينه العذب ، ثم أرجع بعد ذلك الى كثير من كتب التفسير ، وكتب البلاغة قديمها وحديثها لاستخرج الصورة البلاغية ، وأبين نوعها ، وسرها البلاغى .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى ابراز ما فى السورة من أوجه الاعجاز البلاغى .

ولا أدعى أنى قد استقصيتها جميعا فهذا غيض من فيض ، وقليل من كثير ، أرجو أن يحقق الغاية المرجوة وأن يكون فى صحيفتى يوم الدين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم •

تعريف بالسورة(١)

جمعت هذه السورة الجليلة القدر ، العظيمة الشأن على وجازتها ذكر بعض أحوال الآخرة ، والجزاء على الأعمال ان خيرا فخير ، وان شرا فشر •

وهى السورة الثلاثون فى عداد نزول سور القرآن ، نزلت بعد سورة قريش ، وقبل سورة القيامة •

وقد اتفق علماء التفسير على مكيتها ، من حيث ان الموضوعات التى تناولتها تناسب القرآن المكى •

وآياتها : احدى عشرة آية ، وكلماتها : ست وثلاثون كلمة : وعدد حروفها : مائة واثنتان وخمسون حرفا •

وتسمى بسورة « القارعة » فى المصحف الشريف ، ولم يرو شىء فى تسميتها من كلام الصحابة والتابعين •

---

(١) افدت فى هذا من الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٠/٣٠/١٦٤ ـ دار احياء التراث العربى بيروت ـ لبنان ، البحر المحيط لأبى حيان ٨/٥٠٦ دار الفكر ط ٢ ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م روح المعانى للألوسى ٣٠/٢٢١ ـ دار احياء التراث العربى ـ بيروت •

صلتها بسورتى العاديات والتكاثر :

المتأمل للسور الثلاث يجد أن الصلة وثيقة بينهم ، فلما ختم سورة العاديات بذكر أحوال المعاد ، ذكر فى سورة القارعة بعض أحوال الآخرة •

ولما ذكر القارعة وأهوالها قال « ألهاكم أى : شغلكم التكاثر ، أو تكلف الافتخار بها مالا وجاها عن التدبر فى أمر المعاد •

فالسور الثلاث تتحدث عن موضوع واحد وهو اثبات البعث ، وتأكيد وقوعه ، ومشاهدة أهوال القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم •

فقوة الالتحام بين السور الثلاث ظاهرة •

أغراضها :

جاءت السورة لتأكيد اثبات وقوع البعث ، وما يسبق ذلك من أهوال •

كذلك ذكر فيها الجزاء على الأعمال ، كما بينت أن أهل الأعمال الصالحة المعتبرة عند الله فى نعيم •

وان أهل الأعمال السيئة التى لا وزن لها عند الله فى قعر الجحيم •

فضلها :

ورد فى فضلها ان رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من قرأ سورة القارعة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة »(٢) •

---

(٢) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بسندهم الى أبى بن كعب • الكشاف ٤/٧٩١ •

بسم الله الرحمن الرحيم

« القارعة • ما القارعة • وما أدراك ما القارعة • يوم يكون الناس كالفراش المبثوث • وتكون الجبال كالعهن المنفوش • فأما من ثقلت موازينه • فهو فى عيشة راضية • وأما من خفت موازينه • فأمه هاوية • وما أدراك ماهيه • نار حامية •

« صدق الله العظيم »

بلاغة التراكيب فى السورة الكريمة :

القارعة : القيامة التى تقرع القلوب بأهوالها ، وقرع من باب قطع ، والقارعة الشديدة من شدائد الدهر ، وهى الداهية ، وقرعت الباب قرعا بمعنى : طرقته ونقرت عليه •

وهذا القرع الذى فى السورة عبارة عن الصيحة التى يموت فيها الخلائق ، ثم يحييهم الله عند النفخة الثانية •

وقيل القرع هو : اصطكاك الأجرام العلوية والسفلية حين التخريب والتبديل ، أو هو نفس انفطارها ، واندثارها ، واندكاكها •

والقرع أيضا : الاصطكاك بشدة واعتماد ، ثم سميت الحادثة الهائلة قارعة ، والمراد ههنا القيامة ولا أهول منها(٣) •

---

(٣) بتصرف من المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٤٠١ تحقيق محمد سيد كيلانى ـ الطبعة الأخيرة ـ الكشاف للزمخشرى ٥٦٨/٤ دار الكتاب العربى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ، حاشية الشهاب ٢٣٥/٨ دار صادر ـ بيروت ، وانظر تفسير القرطبى م١٠ ج٣٠ ص ١٦٤ ـ ط بيروت

والافتتاح بلفظ « القارعة » افتتاح مهول فيه تشويق الى معرفة ما يلقى بعده من أخبار .

وهذا من حسن الابتداء فى القرآن الكريم .

و « القارعة » مبتدأ محذوف الخبر ، والتقدير : القارعة تربية ، أو فاعل لفعل محذوف تقديره : أتت القارعة . أو منصوب بفعل مقدر تقديره : اذكروا القارعة .

والحذف هنا للايجاز والاختصار فى الكلام ، وللمسارعة الى التحذير من القارعة وما يقع فيها من أهوال .

وقوله : « ما القارعة » :

ما : استفهامية ، والاستفهام هنا خرج من معناه الحقيقى الى معنى بلاغى وهو التهويل « وفيه أيضا معنى الاستعظام والتعجب »(٤) .

والقارعة هنا مراد بها حادثة عظيمة ، وجمهور المفسرين على أن هذه الحادثة هى الحشر ، فجعلوا القارعة من أسماء يوم الحشر مثل القيامة ، وهذا من المجاز المرسل المركب ، حيث سمى الشىء باسم ما يقع فيه من أحداث وأهوال ، وهول الشىء يستلزم تساؤل الناس عنه(٥) .

---

(٤) البحر المحيط لأبى حيان ٨/٥٠٦ . دار الفكر ـ الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م .

(٥) البحر المحيط لأبى حيان ٨/٥٠٦ ـ دار الفكر بتصرف .

وعدل عن أن يقول القارعة ما هى ، لما فى لفظ القارعة من التهويل والترويع ، ففى الكلام اظهار فى مقام الاضمار « زيادة فى وصف شدتها »(٦) .

واعادة لفظ المبتدأ القارعة أغنى عن الضمير الرابط بين المبتدأ والخبر .

« وما أدراك ما القارعة » .

الاستفهام الأول وهو قوله : « وما أدراك » مستعمل كناية من تعظيم أمر القارعة وتهويل شأنها ، بحيث يسأل المتكلم من يسمعه من الشىء الذى يحصل له الدراية بكنه حقيقة يوم القارعة .

والمقصود أنه لا تصل الى كنهه دراية دار « ولم يحط به وصف من أمورها الشاقة وتفصيل أوصافها »(٧) .

والاستفهام الثانى فى قوله : « ما القارعة » حقيقى أى سؤال سائل عن حقيقة يوم الدين ، كما تقول : علمت هل زيد قائم ، أى علمت جواب هذا السؤال .

ومثل هذا التركيب ما جرى مجرى المثل ، فلا يغير لفظه وهو

---

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٠/٣٠/١٦٤ . وانظر التحرير والتنوير ٣٠/٥١٠ ، الدار التونسية للنشر .
ـ البحر المحيط ٨/٣٢٢ .
(٧) البحر المحيط ٨/٣٢٠ .

مستعمل هنا « كلمة استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها »(٨) .

والخطاب فى قوله : « أدراك » لغير معين ، والمعنى : وما أدراك أيها السامع ، وقد جاء الخطاب لغير معين لافادة العموم والشمول لكل السامعين .

هذا وقوله : « ما القارعة » جملة مستأنفة للتهويل من شأن ذلك اليوم ، لهذا جاءت مفصولة عن الجملة الأولى ولم تعطف عليها ، كما أنها توكيد لفظى للجملة الأولى ، والتوكيد والمؤكد لا يعطف أحدهما على الآخر لأنهما بمنزلة الشىء الواحد فبين الجملتين كمال اتصال وعطفت جملة « وما أدراك ما القارعة » على جملة « ما القارعة » لاتحادهما فى الانشائية ، فكل منهما جملة استفهامية ووجدت المناسبة الموجبة للوصل بينهما .

فانظر الى مواطن البلاغة فى السورة ، فهذه ثلاث آيات قصار ومع ذلك جمعت على وجازتها كثيرا من الأساليب البلاغية الجميلة الرائعة ، فقد جمعت بين الأسلوب الخبرى ، والأسلوب الانشائى .

وقد جمعت الآيات بين الأسلوب الانشائى الذى جاء على حقيقته ، والأسلوب الانشائى الذى جاء لمعنى وغرض بلاغى اقتضاه السياق القرآنى .

كذلك جمعت الآيات على وجازتها بين أسلوبى الفصل والوصل .

---

(٨) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٠/٣٠/١٦٤ .

كما جاء فى الآيات الجمع بين أسلوبى الكلام وهما : الايجـاز والاطناب تمثل الايجاز فى ايجاز الحذف ، والاطناب جاء على صورة التـكرير •

كذلك جاء الاظهار فى مقام الاضمار الذى كان له دوره وبلاغته فى السـياق •

وقد كان لكل أسلوب من الأساليب البلاغية المتقدمة جماله ووقعه على النفس ، وبلاغته فى الأسلوب •

فأى بلاغة تصـل الى بلاغة هـذا الأسلوب القرآنى الموجـز المعجـز •

لذا يقول الخطابى : « وانما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة لفظ حامل ، ومعنى قائم ، ورباط لهما ناظر ، واذا تأملت القرآن وجـدت هـذه منـه فى غاية الشرف والفضـيلة ، حتى لا ترى شـيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشـد تلاؤما وتشاكلا من نظمه ، وأما المعانى فلا خفـاء على ذى عقل أنهـا هى التى تشهد لهـا القـول بالتقـدم فى أبوابها ، والترقى الى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها •

وقد توجد هـذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة فى نوع واحد منـه ، فلم توجد الا فى كلام العـليم القدير الذى أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عـددا ، فتفهم الآن ، واعلم أن القرآن انما صـار معجزا لأنه جـاء بأفصح

الألفاظ فى أحسن نظـوم التأليف مضمنا أصح المعانى »(٩) •

« يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبـال كالعهن المنفوش » •

« يوم مفعول فيـه منصوب بفعل مضـمر دل عليـه وصف القارعة لأنه فى تقدير : « تقرع » أو دل عليـه الكلام كله فيقـدر : تكون أو تحصل يوم يكون الناس كالفراش »(١٠) •

وتعريف الناس بـ « اللام » ليشمل أهل السعادة وأهل الشقاء وتكرار كلمة « تكون » مع حرف العطف للاشارة الى اختلاف الكونين ، فان أولهما : كون ايجاد ، والثانى : كون اضمحلال ، وكلاهما علامة على زوال عالم ، وظهور عالم آخر »(١١) •

وقد فصلت جملة « يوم » عن جملة « وما أدراك ما القارعة » لأن جملة « يوما » بيـان للابهامين الذين فى قوله : « ما القارعة وما أدراك ما القارعة » كما أنها جملة خبرية لفظا ومعنى ، وما قبلها جملة انشائية لفظا ومعنى •

وهكذا ترى أن القرآن الكريم يعمد الى الايجازة تارة ، وتارة الى الاطناب ، كما يأتى أحيـانا بالجمل مفصولة ، وأخرى موصولة ،

---

(٩) البيان فى اعجاز القرآن ضمن ثلاث رسـائل فى اعجاز القرآن ص ٢٧ ـ دار المعارف •

(١٠) الكشـاف للزمخشرى ٤/٧٨٩ ، الجـامع لأحـكام القـرآن ١٠/٣٠/١٦٥ •

(١١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٠/٥١٣ ـ الدار التونسية (٢٩ ـ سـوماج)

حسب استدعاء الحال واقتضاء المقام لذلك ، مستعملا فى ذلك أدق الألفاظ فى التعبير عن هذه المعانى • والناظر فى كتاب رب العالمين يجد أن « الجملة القرآنية بناء قد أحكمت لبناته ، ونسقت أدق تنسيق ، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها ، أو تنبو عن موضعها ، أو لا تعيش مع أخواتها ، حتى صار من العسير بل من المستحيل أن تغير فى الجملة كلمة بكلمة ، أو أن تستغنى فيها عن لفظ ، أو أن تزيد فيها شيئا ، وصار قصارى أمرك اذا أردت معارضة جملة فى القرآن أن ترجع بعد طول المطاف اليها ، كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعانى غير هذه الألفاظ ، وكأنما ضاقت اللغة فلم تجد فيها وهى بحر خضم ، ما تؤدى به تلك المعانى غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء »(١٢)

وهذا علا القرآن الكريم ، وعجز الجميع عن الوصول الى سر روعته واعجازه •

« فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية » •

التعبير بضمير الغيبة فى قوله : « فهو » عائد على من سبق الحديث عنه ، وهو الذى ثقلت موازينه ، وعبر بضمير الغيبة لأن المقام للغيبة ، ولقصد تعظيم صاحب تلك العيشة ، والقرينة تدل على أن الضمير يعود عليه ، وهو من ثقلت موازينه •

وقد نكر النظم الكريم « عيشة » للنوعية ، لأن القصد نوع خاص من أنواع الجنس المنكر ؟ وهى العيشة التى يرضى بها صاحبها، وترضى به •

---

(١٢) من بلاغة القرآن لأحمد بدوى ص ١٠٥ ـ نهضة مصر •

يقول القرطبى :

« أى عيش مرضى ، يرضاه صاحبه ، وقيل : « عيشة راضية » أى فاعلة للرضا ، وهو اللين والانقياد لأهلها ، فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها وهو اللين والانقياد ، فالعيشة كلمة تجمع النعم التى فى الجنة ، فهى فاعلة للرضا ، ••••••••• »(١٣) •

ومن وجوه الاعجاز البلاغى فى النظم القرآنى السابق المجاز العقلى فى قوله : « عيشة راضية » وهو مجاز عقلى علاقته المفعولية فقد أسند اسم الفاعل « راضية » الى ضمير العيشة ، والعيشة لا تكون راضية ، وانما يرضى صاحبها فهى مرضية •

والذى سوغ المجاز هنا وحسنه : هو العلاقة بين صاحب العيشة والعيشة فى تعلق الفعل بهما ، فتعلقه بصاحب العيشة من حيث صدق الرضا منه ، وتعلقه بالعيشة من حيث وقوعها عليه •

وبلاغة المجاز العقلى هنا « المبالغة فى جمال العيشة وأنها من الروعة بحيث يتخيل أنها وهى لا تعقل ولا تحس قد شاركت فى هذا الرضا »(١٤) •

وقد أدى المجاز العقلى هنا دوره فى بلاغة السياق وايجازه وروعته فى الدلالة على النعيم التام •

---

(١٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٠/٣٠/١٦٦ •

(١٤) ينظر جامع العبارات فى تحقيق الاستعارات تأليف أحمد مصطفى الفرودى التونسى ص ٣٦٢ ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ـ معانى التراكيب د/عبد الفتاح لاشين جـ ١ ص ٩٧ ـ ١٤٠١٢ ـ ١٩٩٢م

وللمجاز العقلى أثر فى توسع أساليب اللغـــة ، فهو يعين الأديب على أداء معانيه ، والوصول الى مراميه فى صـــورة بليغة موجـــزة وقد قال عنـــه الامام عبد القاهر الجرجانى :

« هو كنز من كنوز البـــلاغة ، ومادة الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ فى الابداع والاحسان ، والاتساع فى طرق البيان ، وأنـــه يـــدق ويلطف حتى يمتنع مثـــله الا على الشـــاعر المفلق ، والكاتب البليـــــغ »(١٥) .

« وأما من خفـــت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ما هى ، نار حـــــامية » .

قيل ان فى قوله : « أمه هاوية » حـــذف مضاف ، أى أم رأسه وهى أعلى الدماغ ، وهاوية ســـاقطة ، من قولهم : ســـقط عـــلى أم رأســـه : أى هلك »(١٦) .

وحذف المضاف هنا : للايجاز والاختصار فى الكلام .

وقد حـــذف المسند اليه فى قوله : « نار حامية » لأن ذكر المسند اليه المبتدا لا ضرورة له ، ولا حاجة اليه من الناحية البلاغية لأننـــا ندركه من أول وهلة ، بل اننـــا نحس فى حذفه قيمة جمالية استفادها المعنى من هـــذا الحذف ، اذا تأملنا الفرق بين هـــذا الأسلوب الموجز ، وبين أن يقال : « وما أدراك ماهية ، هى نار حامية » ، فالتعبير الأول يفيد الاسراع الى ذكر النـــار ، بعـــد أن أثار الشوق اليها بالسؤال .

---

(١٥) دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجانى ص ٢١٣ .

(١٦) الكشاف للزمخشرى ٤/٧٩٠ ، وانظر روح المعانى للألوسى ٣٠/٢٢٢ .

ووصف « نار » بـــ « حامية » من قبيل التوكيد اللفظى لأن النار لا تخلو عن الحمى ، فوصفها به وصف بما هو من معنى لفظ « نار » فكان كذكر المرادف ، وفى هـــذا اشارة الى أن نيران الدنيا بالنسبة الى نار الآخرة غير حامية •

وتنكير « نار » ووصفها بـــ « حامية » للتفخيم والتهويل زيادة فى الوعيد ، وللدلالة على أنها بلغت فى الاحراق والحمى ـــ مبلغـــا عظيما ، ودرجة لا يدرك كنهها ، ولا تعرف حقيقتها •

هـــذا وقد عطف النظم الكريم جملة : « وأما من خفت موازينه » على جملة « فأما من ثقلت موازينه » لوجـــود المناســـبة بينهما وهى التضاد بين معنى الجملتين ، والجملتين خبر يتبين لفظا ومعنى •

كما عطفت جملة « وما أدراك ماهيه على جملة « فأمه هاوية » مع اختلافهما خبرا وانشاء ، لوجود المناسبة بينهما فكل منهما تتحدث عن نار جهنم •

وقد فصلت جملة : « نار حامية » عن جملة « وما أدراك ما هى » لمـــا بينهما من كمال اتصال ، فجملة نار حامية بيـــان لجملة « ومـــا أدراك ما هى •

وهكذا نجـــد أن للفصل والوصل فى القرآن الكريم منزلة بلاغية سامية ، حسب اقتضـــاء المقـــام واستدعاء الحال •

والبلاغة اذا اعترلتها المعرفة ، بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلىء بلا نظـــام •

يقول الامام عبد القاهر : « ان العلم بما ينبغى أن يصـــنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها ، والمجىء بهـــا

منثورة ، تستأنف واحدة منها بعد أخرى ، من أسرار البلاغة ، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه الا الاعراب الخاص ، والاقوام طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنا من المعرفة فى ذوق الكلام هم بها افراد ، وقد بلغ من قسوة الأمر فى ذلك انهم جعلوه حدا للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : معرفة الفصل من الوصل ، وذلك لغموضه ، ودقة مسلكه ، وانه لا يكمل لاحراز الفضيلة فيه أحد الا كمل لسائر معانى البلاغة » (١٧) .

وهكذا نرى أن الأساليب البلاغية فى السورة الكريمة قد تضافرت وتآزرت ، وكان لكل أسلوب بلاغته ووقعه فى السياق القرآنى ، حتى بدت السورة الكريمة كلوحة فنية جميلة رائعة ، ساعد كل لون من الألوان البلاغية على ابراز ما فيها من جمال وروعة .

ومن أوجه الاعجاز البلاغى فى السورة الكريمة ذلك التشبيه الخالد خلود الزمن ، الدائم دوام الدهر — الذى استمد النظم القرآنى عناصره من البيئة الطبيعية الناطقة بعظمة الله ، الشاهدة بآثاره ، الماثلة أمام البشر ، والمعروفة لديهم ، والشائعة بينهم ، فلم تجد النفس فرصة للتردد فى قبوله ، أو الشك فى معقوليته ، وكان مدار هذا التشبيه واعتماده على اقتراب الصورتين فى النفس ، وشدة وضوح الطرفين لدى السامع .

وذلك عند تصوير المولى عز وجل مشهدا من مشاهد القيامة حيث يقول سبحانه وتعالى :

---

(١٧) دلائل الاعجاز ص ١٥٦ .

« يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش » تشبيهان رائعان من التشبيه المرسل المجمل .

ففى الأول شبه المولى عز وجل الناس يوم القيامة بالفراش المبثوث ، وهو فرخ الجراد حين يخرج من بيضته فيركب بعضه بعضا (١٨) ، وذلك فى الطيش الذى لحقهم ، والتطاير الى النار للاحتراق من حيث لا تريد الاحتراق ، وانتشارهم فى الأرض وكثرتهم ، وركوب بعضهم بعضا ، واضطرابهم ، وضعفهم وتذللهم ، واجابتهم الداعى من كل جهة ، وكثرة اكتظاظهم على أرض الحشر .

تأمل جمال هذا التشبيه ، ومدى روعته ، فأى صورة تشبيهية تعطى هذا المعنى الذى أراده المولى عز وجل ، وأى ألفاظ مهما بلغت من الفصاحة وقوة البيان تعطى بريق هذا التشبيه المرعد الذى يصور حال الناس يوم القيامة ، وهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس الذى شاع فى القرآن الكريم ، والقرآن الكريم حين يشبه محسوسا بمحسوس ، فانما يهدف الى رسم الصورة كما تحس بها النفس .

والثانى : تشبيه الجبال بالعهن المنفوش فى تفتتها وانهيارها وصيرورتها كالعهن وهو « الصوف الأحمر ، أو الصوف المصبغ ألوانا » (١٩) .

---

(١٨) البحر المحيط لأبى حيان ٨/٥٠٦ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠/٣٠١/١٦٥ .

(١٩) المفردات للراغب الأصفهانى ص ٣٥١ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ٣٠/١٠٤ تحقيق ابراهيم عطوة عوض ـ مطبعة الحلبى

والمنفوش : « اسم مفعول من النفس ، وهو : تشييت الشيء بأصابعك حتى ينتشر كالتنفيش ، والنفش بالتحريك الصوف ، يقال : نفشت الصوف والقطن وسبخته اذا نفشته وخففته كما يفعل النادف »(٢٠) .

فقد شبه النظم الكريم الجبال العالية الصلبة المتماسكة بقطع الصوف المنتشرة المتطايرة الصغيرة ، ووجه الشبه تفتتها وانهيارها ، وصيرورتها كالعهن ثم صيرورتها كالهباء .

« فالعهن المنفوش يصور أمامك منظر هذه الجبال ، وقد صارت هشة لا تتماسك أجزاؤها ، ويحمل الى نفسك معنى خفتها ولينها »(٢١) .

فالجبال الشم الصلبة يوم القيامة تكون خفيفة هشة كالصوف المنفوش المفرق بعض أجزائه عن بعض ليغزل أو تحشى به الحشايا .

« وقد شبهت الجبال بأضعف ما يكون وأرخاه لاظهار قدرته تعالى ، مبالغة فى الرد على من أنكر المعاد ، وتكذيبا لمن حاك فى صدره استبعاد ذلك »(٢٢) .

فالجبال يوم القيامة تنحك بالزلازل ونحوها فتفرق أجزاء .

---

(٢٠) المفردات ٥٠٢ غرائب القرآن ٣٠/١٠٤

(٢١) من بلاغة القرآن لأحمد بدوى ص ١٩٢ ـ ط نهضة مصر .

(٢٢) البيان فى ضوء أساليب القرآن لأحمد بدوى ص ٧٧ ـ دار المعارف ط الثالثة ١٩٨٥م .

وقد تشبهت الشعراء بهذه المعانى فقال جرير يهجو الفرزدق :

أبلـغ بنى وقيـــان أن حلومهم
خفت فما يزنون حبـــة خـردل
أزرى بحلمـكم الغياث فأنتـــم
مثل الفراش غشين نارا لمصطلى(٢٣)

وقال أبو العلاء المعرى فى رثاء والده :

فياليت شعرى هـل يخـف وقاره
اذا صار أحـد فى القيـامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروى مبـادرا
مع الناس أم يأبى الزحام فيستأنى

وقول زهير :

كأن فتات العهن فى كل منزل نزلن به حب العتا لم يحطم

وهـكذا نجـد أن عناصر التشبيه القرآنى تستمد عناصرها من الطبيعة القريبة من أذهان الناس ، وهـذا سبب خلودها وبقـائها « وان قل المشبه به وضؤل أمره ، فهو لا يعنى بنفاسة المشبه به وانما العناية كلها باقتراب الصورتين فى النفس وشدة وضوحها »(٢٤).

---

(٢٣) فالفـراش ما يتطـاير الى السراج ، وربما مات فيه لحمقـه ، والمصطلى : المتدفىء بالنار ، شبههم به فى الذل والجهل والتطفل على الغير، كما يغشى الفراش نار المصطلى ويحوم حولها ، وربما ألقى بنفسه الى النار فهم مثله . البحر المحيط ٨/٥٠٦ ، وانظر الكشاف للزمخشرى ٤/٧٨٩ .

(٢٤) عن بلاغة القرآن لأحمد بدوى ١٩٦ وما بعدها .
ـ انظر المثل السائر لابن الأثير ٢/١٣٠ .

« فالقرآن يختار من الصور الأدبية ما يمكن أن يكون من الصور العالمية التى تظل موحية ، والتى يظل فعلها القوى الساحر مهما اختلفت البيئات ، وتتابع الزمن »(٢٥) .

والتشبيه القرآنى من أسرار الاعجاز فهو يمتاز بالدقة فى اختيار ألفاظه المعبرة الموحية ، وتصوير المعانى تصويرا قويا مؤثرا يملك القلب ، ويأسر اللب ، ويسترعى الأسماع ، ويفتح الآفاق ليتأمل القارىء له مدى بلاغته وقوة اعجازه ومدى تأثيره فى القلوب .

وقرن النظم القرآنى بين الناس والجبال « تنبيها على تأثير تلك القارعة فى الجبال حتى صارت كالعهن المنفوش فكيف يكون حال الانسان عند سماعها »(٢٦) .

ومن الألوان البيانية الرائعة التى كان لها دورها فى ابراز جمال السياق القرآنى الكناية فى قوله : « فأما من ثقلت موازينه »(٢٧) .

فثقل الموازين كناية عن كونه بمحل الرضا من الله تعالى لكثرة حسناته ، لأن ثقل الميزان ، يستلزم ثقل الموزون وانما توزن الأشياء المرغوب فى اقتنائها ، كذلك الذى يزن من الأعمال المقبول منها ، التى رضى الله عنها وعن صاحبها .

---

(٢٥) البيان فى ضوء أساليب القرآن ص ٧٨ .

(٢٦) تفسير النهر المارد من البحر المحيط ص ٥٠٦ ج ١٨ ـ دار الفكر ط ٢ ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .

(٢٧) سورة القارعة آية ٦ .

والموزون هو العمل الصالح ؛ ولم يصرح به فى الآية لظهور أنه هو الذى يثقل الموازين •

وعلى الجانب الآخر ، نرى أن خفة الموازين كناية عن عدم الرضا عن الأعمال ، وعدم قبولها ، وعدم الرضا عن صاحبها ، لذلك لم توزن فى ميزان الحسنات وبالتالى خفت الموازين •

فانظر الى بلاغة الكناية السابقة ، ومدى رقة ألفاظها ودقة معانيها ، وايجازها الجميل ، الذى تعجز أى صورة بيانية أخرى أن تؤديها على هذا الأسلوب الرائع ، والمعنى المعبر الذى يشع من اشعاعات الألفاظ ورونقها •

يقول الخطيب القزوينى فى سر بلاغة الكناية : « أطبق البلغاء أن الكناية أبلغ من الافصاح بالذكر ، ويذكر بعد ذلك قول عبد القاهر : « ليس ذلك لأن الواحد من هذه الأمور يفيد زيادة فى المعنى نفسه لا يفيدها خلافه ، بل لأنه يفيد تأكيدا لاثبات المعنى لا يفيده خلافه » (٢٨) •

والقرآن الكريم قد أتى بأروع الكنايات ، وأعلاها طبقة فى البلاغة ، للدلالة على ألطف المعانى وأوجزها ، وآكدها ، وأكثرها تأثيرا فى النفوس ، وسحرا للأفئدة والقلوب •

وعندما نقرأ قوله تعالى : « فأمه هاوية » •

نجد أن الأم « يجوز أن تكون مستعملة فى معناها الحقيقى ، وهاوية بمعنى هالكة •

---

(٢٨) الايضاح ٣٢٨ وما بعدها •

وعلى هـذا يكون الكلام تمثيلا لحال من خفت موازينه ، بحال الهالك فى الدنيا لأن العرب يكنون عن حال المـرء بحال أمه فى الخير والشر لشدة محبتها ابنها ، فهى أشـد سرورا بسروره ، وأشد حزنا بمـا يؤلمـه •

والعرب تقول هوت أمه أى : هلكت وسقطت يعنون الدعاء عليه بالويل والثبور ، والخزى والهوان •

فكأنه قيل : وأما من خفت موازينه فقد هلك »(٢٩) •

وقيل ان « هاوية من أسـماء النار ، وكأنها النار العميقة لهوى أهل النار فيها هوى بعيـدا ، أى فمأواه النار »(٣٠) •

وعلى هـذا يكون فى الكلام استعارة فقـد شبه المـاوى بالأم، لأنها مأوى الولد وملجزعه •

فأمه هنا مستعارة استعارة تصريحية أصلية للمقر والمـأوى ، لأنه يأوى اليـه من خفت موازينه كما يأوى الطفل الى أمه ، ويحسن أن تكون الاستعارة هنا تهكمية ، فالطفل عندما يأوى الى أمه يجـد عندها الدفء والحنان والأمان بينما يأوى الكافر الى جهنم ، فيجـد اللهيب والزفير والاحراق بالنيران ، نعوذ بالله من ذلك •

---

(٢٩) انظر الكشاف للزمخشرى ٤/٧٩٠ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٨/٣٩٣ ـ دار صادر بيروت ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ٣٠/١٦٥ •

(٣٠) الكشاف ٤/٧٩٠ •

وقيل المراد أم رأسه أى يلقى فى النار منكوسا على رأسه وعلى كل ففى العبارة جمال أخاذ فى الأسلوب ، ووقع المعانى فى النفس ، وحسن تصوير ، ودقة ترتيب ، وروعة أداء •

تأمل النظم الكريم وما فيه من روعة وبهاء فهو يصور الشقاء وسوء الحال ، وعاقبة المآل ، بأسلوب موجز بليغ فى لفظتين اثنين « فأمه هاوية » تنبع منهما ايحاءات كثيرة ، ودلالات عميقة ، تترك أثرا فى النفس ، وجرسا فى السمع ، غياله من كتاب موجز معجز •

يقول الرافعى : « ان طريقة نظم القرآن تجرى على استواء واحد فى تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها ، وفى التمكين للمعنى يحس الكلمة وصفتها ، ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام ، وباستقصاء أجزاء البيان ، وترتيب طبقاته على حسب مواقع الكلمات لا يتفاوت ذلك ولا يختل »(٣١) •

ومن أوجه الاعجاز فى السورة الكريمة ، المحسنات البديعية الجميلة التى كان لها دور بناء فى تأكيد المعنى أولا وتحسين اللفظ ثانيا •

من ذلك التقسيم الذى جاء مبنيا على أسلوب المقابلة ، وذلك فى قوله تعالى : « فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية » •

حيث قسم حال الناس الى قسمين حال حسن هنىء ، وحال قبيح مرىء •

---

(٣١) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٧٥ •

والقسم الأول : هم أهل السعادة الذين ثقلت موازين أعمالهم الصالحة فنالوا من الله الثواب العظيم .

والقسم الثانى : هم أهل الشقاء الذين لم يثقل ميزان أعمالهم ، فاستحقوا من الله العذاب الأليم .

وهذا القسم الذى جاء بأسلوب المقابلة الجميلة لبيان الفرق بين القسمين فى العمل والجزاء ، اذ ان الجزاء من جنس العمل ، ان خيرا فخير وان شرا فشر .

والمقابلة واضحة فى كل جزئية من الجزئيات التى تصور حال المؤمنين ونعيمهم ، وحال الكافرين وعذابهم .

والتقسيم والمقابلة فيما سبق من المحسنات البديعية المعنوية التى كست اللفظ حلاوة ، وزادته طلاوة ، وأكدت المعنى فى ذهن السامع أشد تأكيد .

ومن وجوه الاعجاز البلاغى فى السورة الكريمة اشتمالها على بعض المحسنات البديعية كالادماج وهو : « أن يدمج المتكلم غرضا له فى ضمن معنى قد نحاه من جملة المعانى ليوهم السامع أنه لم يقصده ، وانما عرض فى كلامه لتتمة معناه الذى قصد اليه »(٣٢) .

وذلك فى قوله تعالى « وتكون الجبال كالعهن المنفوش »(٣٣) .

---

(٣٢) تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر ، وبيان اعجاز القرآن لابن أبى الاصبع المصرى ٥٨٥ ـ ٦٥٤هـ تقديم وتحقيق د/ حفنى محمد شرف ص ٤٤٩ يشرف على اصدارها محمد توفيق عويضة .

(٣٣) سورة القارعة آية ٥ .

فهى معترضـــة بين جملة « يوم يكون النـــاس كالفراش المبثوث » وجملة : « فأما من ثقلت موازينه » وهو ادماج جاء لغرض التهويل ، فحسن فى موقعه ، وجمل فى مكانه •

ومن المحسنات البديعية المعنوية الجميلة التى اشتملت عليهـا السورة الكريمة أيضا فجاءت فى غاية الروعة والجمال •

الاستخدام وهو : « أن يأتى المتكلم بلفظة لها معنيان ثم يأتى بلفظتين تتوسط تلك اللفظة بينهما ويستخدم كل لفظة منهما لمعنى من معنى تلك اللفظة المتقـــدمة »(٣٤) •

وذلك فى قوله تعالى « وما أدراك ماهيه »(٣٥) •

فأسلوب الاستفهام هنا للتهويل •

وضمير « هيه » عائد الى « هاوية » وهى : « المكان المنخفض بين الجبلين الذى اذا سقط فيه انسان أو دابة هلك يقال : ســـقط فى الهاوية ، فالمراد بهاوية هنا هالكة والمراد منه اسم جهنم •

الفواصل وبلاغتها فى السورة الكريمة

الفواصل : حروف متشابكة فى المقاطع ، توجب حسن افهـــام المعانى وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لأنها طريق الى افهـــام المعانى التى يحتاج اليها ، فى أحسن صورة يدل عليها •

« فالوزن والفاصلة فى القرآن الكريم أكسبا نظمـــه قوة فى

---

(٣٤) تحرير التحبير ص ٢٧٥ •

(٣٥) سورة القارعة آية ١٠ •

التعبير ، لأن انسياب النغم الموسيقى فى الآيات بهما ، وتدمغه مع المعانى قوة ولينا ، متمم للأثر القوى ، الذى يحدثه القرآن فى نفوس السامعين عن طريق الحس النفسى »(٣٦) .

وقد جاءت فواصل سورة « القارعة » متنوعة بين حروف متقاربة غير متباعدة كالتاء والهاء ، والسين والشين .

نقرأ قوله تعالى : « القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة »

فهذه الآيات الثلاث انذار بما يكون يوم القيامة ، وهى وعيد وتهديد للاعتبار والاتعاظ ، ويشترك فى نغمة الترهيب والتهديد والوعيد الألفاظ بحروفها ، والجمل بكلماتها ، والخواتيم بشدة جرسها ، وقرع الأسماع لها ، وهذا من جودة سبك القرآن ، ومظهر من مظاهر الاعجاز البلاغى فيه .

والسورة تتألف من آيات يغلب عليها القصر فقد تكون الآية كلمة واحدة كالقارعة ، أو كلمتين ، أو بضع كلمات ولكنها لا تطول كثيرا .

ثم بعد ذلك يتغير مبنى الفاصلة فى قوله : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش » وذلك تنشيطا للسامع والقارىء ، وللملاءمة والاتساق ومراعاة المعنى ، وليس لمجرد الحلية اللفظية .

وقد أتت الفاصلة مستقرة فى قرارها ، مطمئنة فى موضعها غير نافرة ولا قلقة ، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها تعلقا تاما ، بحيث

---

(٣٦) أثر القرآن فى تطور النقد الأدبى د/ محمد زغلول سلام ص ٢٤٣

لو طرحت لاختل المعنى ، واضطرب الفهم ، فقـد أدت الفاصلة فى مكانها جزءا من معنى الآية ينقص ويختل بنقصانها •

ثم عند بيان عمل كل فريق والجزاء عليـه تغير مبنى الفاصـلة أيضا لتغير الموضوع ، فأتى على نظام آخر ، يقول جل شأنه :

« فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضـية ، وأما من خفت موازينـه فأمه هاوية ، وما أدراك ما هى نار حامية » •

وتنويع حرف الفاصلة فى السورة ليس للاستمرار فى شـكل التغاير ، انما هو لخدمة المعنى وتقريره ، والسورة اشتملت على آيات قصار تختص عن غيرها بأن لها خاصة ، وهى الوقوف عنـد فواصلها المتقاربة غير المتباعدة ، فتكون وقفة يقتضى السكون عندها •

و « الفواصل القرآنية تأتى لمقتضيات معنوية مع نسق الايقاع بهذه الفواصل ، وائتلاف الجرس لألفاظها التى اقتضتها المعانى على نحو تتقاصر دونه طاقة البلغاء »(٣٧) •

ففى السورة جمال ملحوظ فى تعـدد نظام فواصلها ، وتغـير حروف القوافى حسب تنوع المعانى وتغيرها •

وما هـذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن الا صورة تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى •

يقول الدكتور محـمد أبو موسى : « ولست أرفض أن يراعى

---

(٣٧) الاعجاز البيانى لقرآن للدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٢٤٩

القرآن حق الفاصلة ، لأن هـذا ليس أمرا لفظيا هينا كما فهمه كثير من البلاغيين •

وقليل منهم تنبه الى قيمة الأثر الصوتى ، أو الأثر الموسيقى فى التأثير والايحاء ، وظل أكثرهم يفهم أن شئون اللفظ لا تعدو أن تكون محسنات سطحية لا تتصل بجوهر البلاغة •

وليس من الخطأ فى الدين ، ولا فى البلاغة ، أن نقول ان القرآن يهتم بالناحية اللفظية ، لأنها جـزء من أسـلوبه ولأنهـا من دواعى التأثير ، وتلك وظيفـة القرآن الكبرى فالغرض منه أولا هو : قيادة النفس الانسانية الى سـبيل الخير ، فمن الحتم أن يأخذ كل سـبيل الى هـذه الغاية . فلا يهمل هـذا الجانب الهام من بلاغته »(٣٨) •

وقد أشاد الامام عبد القاهر بالجانب اللفظى فى القرآن الكريم وذكر أن له دورا فى الاعجاز •

يقول الامام عبد القاهر : « واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقـة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد أمر الاعجاز »(٣٩) •

---

(٣٨) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د/ محمد أبو موسى ٣٦٩ •

(٣٩) دلائل الاعجاز ص ٢٥٢ •

رعـاية التسلسل المعنـوى
مع ملاءمـة نغمـة السـورة
وجرسـها لموضـوعها

ان أول ما يلاقيك ويسترعى انتباهك من أسلوب القرآن خاصية تأليفه الصوتى مع شكله وجوهره ، وملاءمة ذلك الجـرس الصوتى لموضوعه ، وتسلسله المعنوى فى عرض موضوعاته •

« ونظم القرآن يجمع الى الجـمال عـزة وغرابة ، وان هـذا الجمال كان قوة ذاتيـة حفـظ بها القرآن من الفقد والضياع »(٤٠) •

فـ « نظم القـرآن ونغمه ينبعث من كلماته وحروفه وأسلوبه فحروفه متآخية فى كلماته لها موسيقى ونغم تهتز لها المشاعر ، وتسكن عندها فتطمئن النفوس •

والكلمات فى تأخيرها فى العبارات تنتج موسيقى ونغما يختص به القرآن وحده ، وان أى كلام مهما يكن علو صاحبه فى البيـان لابد أن يكون مختلفا عن القرآن لا يمكن أن يلحق به لأنه كلام اللـه تعالى وفوق طاقة البشر »(٤١) •

والقارىء لسورة القارعة يشعر بالمناسبة التامة ، والانسـجام الواضح بين موضوعها ونغمتها ، فقـد جاءت مقدمتها قوية الجرس ، ذات فواصل قصيرة ، وتتوازن فيها المدود والحركات ، فى توزيـع منسجم يصور ما يحدث يوم القيامة من مشاهد مفزعة ، وأهوال مرعبة

---

(٤٠) النبأ العظيم ص ١٠٤

(٤١) المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٦٢ •

نقـرأ قـوله تعـالى : « القـارعة ما القـارعة وما أدراك ما القارعة »(٤٢) •

فهذه ثلاث موجات متعاقبة متدرجة فى الطول ، وكلها قصيرة، يتوالى فيها السؤال والاستفهام ، وتتكرر فيهـا كلمة « القارعة » وهى الكلمة الجديدة التى تعبر هنا عن يوم القيامة والحساب ، وتتكرر فيها هـذه القاف المشدودة التى تقرع السمع قرعا ، والمسبوقة بالمـد الطويل ، الممهد لها ، المبرز لشدتها ، والمختومة بالهـاء التى تنطفىء عندها شـدتها •

انها لمقدمة مثيرة من حيث معناها ، ومن حيث نغمتها وجرسها ، يتهيأ بها السامع كل التهيؤ للاصغاء ، ويستعد لتلقى ما سيتلى عليـه من أنبـاء •

وهى مقدمة قارعة قرية تثير الهلع والفزع من هول ذلك اليوم، وهول ما يقع فيه •

وهذا من حسن الابتداء فى القرآن الكريم ، فهو بهذا المطلع القوى يوقظ الضمائر الغائبة ، والأنفس اللاهيـة العابثـة لتسـتعد لهول هذا الموقف •

وتكرير « لفظ » القارعة فى هذا الأسلوب الاسـتفهامى الذى خرج من معنـاه الحقيقى الى معنى آخر مجـازى وهو التفخـيم والتهويل من شأن يوم القيامة ، وشـأن ما يقع فيه من أهوال على أعداء الله ، وأما أولياؤه فهم من القرع آمنون •

وفى الاستفهام تعظيم لشأن القارعة ، وتهويل لأمرها •

كما أن فى النظم القرآنى السـابق أسـلوب من الأسـاليب

---

(٤٢) سورة القارعة ١ : ٣ •

البلاغية الجميلة الرائعة ، وهو وضع الظاهر موضع المضمر فلم يقل « ما هى » أو « ما أدراك ما هى » لزيادة التهويل والتفخيم لشأنها •

ولا يخفى على من له ذوق حسن هذا الاظهار ، وأن له موقعا فى النفس ، وبلاغة لا تخفى ، تنبع من اشعاعات اللفظ المظهر •

كما أن حرف القاف يظهر ظهورا عجيبا فى هذا السياق مع كثير من الحروف المكررة كالراء والعين ، وهذا من أوجه الاعجاز البلاغى القرآنى وهو انسجام النغم فى التكرار •

فـ « ان عودة النقرة على الوتر تحدث التجاوب مع سابقتها ، فتأنس الأذن بازدواجهما وتآلفهما ، فان عودة الحرف فى الكلمة تكسب الأذن هذا الأنس لو لم يكن لعودته مزية أخرى تعود الى معناه ؛ فان كان مما يزيد المعنى شيئا أفاد مع الجرس الظاهر جرسا خفيا لا تدركه الأذن ، وانما يدركه العقل »(٤٣) •

ثم ان أجراس هذه الكلمات وما فيها من ترديد الحروف التى تتكون منها مادة كل كلمة يتداخل فتولد فى الآيات أنغاما خاصة ، ورنينا متميزا ، يثير الخوف والهلع فى النفوس لتوقظها من رقدتها •

ولما كان الكلام فى السورة كلها عن هذه القارعة ــ حقيقتها وما يقع فيها ؛ وما تنتهى اليه (٤٤) •

« بدأ بالقاء الكلمة كأنها قذيفة لتلقى بظلها وجرسها للأيحاء المدوى المرهوب •

---

(٤٣) التكرير بين المثير والتأثير ــ د/عز الدين السيد ص ١١ •

(٤٤) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦/٣٩٦١ ــ دار الشروق الطبعة الثانية عشر ١٩٨٦ ــ ١٤٠٦هـ

ثم أعقبها سـؤال التهويل : « ما القارعة » فهى الأمر المستهول الغامض الذى يثير الدهش والتساؤل .

ثم أجاب بسـؤال التجهيل « وما أدراك ما القارعة » فهى أكبر من أن يحيط بها الادراك وأن يلم بهـا التصوير »(٤٥) .

فانظر الى بلاغة القرآن الكريم وحسن أدائه للمعنى المراد أدق أداء .

« لهذا علا القرآن الكريم وعجـز الجميع عن الوصول الى سر روعته وبهائه واعجازه فالفاظه بنظمها وبنائها ووزنها وطريقة استعمالها ووجه تركيبها بلغت قمـة الاعجاز البيانى والبلغـاء لا تتتنـع عليهم العربية متى أرادوا نظمها ، ولكن مع هذا لا يبلغون حـد الاعجـاز فى ألفاظهم وتراكيبهم ، فان اتفقت لهم الألفاظ فى وزنهـا وبهـائها لا تتفق فى تراكيبها ومواضعها وافادتها المعانى الموضوعة لها ، فهى فى القرآن تأتى فى موضع وتقع فى تركيب ممتنع عن البلغاء ، حيث ان النظم القرآنى يستعمل الكلمة ، ويراعى كيفيـة بنـائها ووزنها وجرسـها ويـلائم بين كل هـذا وبين المعـنى الذى تؤديه فى العبـارة (٤٥) .

وقد حصل فى هذه السورة الكريمة تهويل شـديد بثمانية طرق : وهى الابتداء باسم القارعة المؤذن بأمر عظيم ، والاستفهام المستعمل فى التهويل ، والاظهار فى مقام الاضـمار أول مرة ـ والاستفهام عما ينبىء بكنه القارعة ، وتوجيه الخطاب الى غير معين ، والاظهـار فى مقام الاضـمار ثانى مرة ، والتوقيت بزمان مجهول حصوله ، وتعريف ذلك الوقت بأحوال مهولة .

وكل كلمة سيقت فى السورة ، كان لها معنى قائم بذاتها ، وهى

---

(٤٥) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ٢٥٦ بتصرف .

مع ذلك متآخيــة مع جاراتها واخــواتها ، وتأتلف فتعطى صــورة بيــانية رائعــة •

وتصور الألفاظ بجرسها وحسن موقعها فى الأسماع مشهدا من مشاهد يوم القيامة فتقول :

« يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبــال كالعهن المنفوش » وذلك من هــول الموقف وشــدته . وهاتين الآيتين لهمــا طريقــة فى تركيبها تنســجم فيهما النغمــة مع الفــكرة ، ويتعــانق فيهما الجرس الموسيقى مع المنطق الفكرى •

يكون ــ الناس ــ كالفراش ــ المبثوث ــ تكون ــ الجبال ــ كالعهن المنفوش » وقوة التحامهما فى نغمها ، وتآخيهما فى أفكارهما جعلت منــه قطعة لها نغمتها المستقلة •

وهكذا تتناسب المعانى مع النغمات ، وتنسجم الأفكار مع الأصوات والأوزان فتشعر بالعــدل الالهى المنبعث من قوله :

« فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه ، نار حامية » •

فحسن التقسيم ، وتنوع التأليف ، وكثرة الفقرات مما يجعلهــا بالاضــافة الى موضوعها ، وطريقتها فى الوصف ، وقوة التمثيل ، فى غاية الروعة والجمال فكرة وتعبيرا وجرسا •

و ــ فى السورة ــ كما نرى ــ قوة التصوير ، والمناســبة بين المعنى واللفظ ، وهكذا نجــد أن : « تركيب القــرآن الكريم انتظــم أسباب الاعجاز من الصوت فى الحرف ، الى الحرف فى الكلمة ، الى الكلمة فى الجملة ، حتى يكون الأمر مقــدرا على تركيب الحــواس النفسية فى الانسان تقــديرا يطابق وضعها وقواها وتصرفها »(٤٦)•

---

(٤٦) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ص ٢٧٠

ولما كانت الألفاظ تنقسم فى الاستعمال الى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه .

كانت سورة « القارعة » من السور التى تمتاز بالقوة والجزالة فى غالب آياتها .

وعلى الرغم من قرع ألفاظها ، وشدتها الا أنها لم تجد فيها شيئا وحشى الألفاظ ولا متوعرة ، وهذا من بلاغة الكتاب العزيز التى لا تصل اليها أى بلاغة كلام آخر .

يقول ابن الأثير :

« انظر الى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط ، وعند ذكر الموت ، ومفارقة الدنيا ، وما جرى هذا المجرى ، فانك لا تجد شيئا من ذلك وحشى الألفاظ ولا متوعرا ، ثم انظر الى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة والملاطفات فى خطاب الأنبياء وخطاب المتيبين والتائبين من العباد ، وما جرى هذا المجرى ، فانك لا ترى شيئا من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسفا » (٤٧).

فعند تأملنا السورة « القارعة » نجدها تتحدث عن مشهد من المشاهد العنيفة الصاخبة يوم القيامة ، لذلك نراها تبدأ مباشرة بلفظ قوى قارع وهو لفظ « القارعة » وهو أسلوب خبرى أتى بعده أسلوب انشائى وهو الاستفهام عن ماهية القارعة ، وكرر ذلك مما جعله أشد وقعا على النفس .

وكلمات هذه الآيات جاءت بألفاظ قوية قارعة جزلة تقع على النفس فتقرعها قرعا ، وتدفعها الى تأمل ما يكون فيها .

---

(٤٧) المثل السائر لابن الأثير تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ١/١٦٩ ـ شركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .

ثم يبدأ السياق القرآنى فى تصوير ذلك المشهد فيقول : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش »(٤٨) .

« وهو مشهد تطير له القلوب شعاعا ، وترجف منه الأوصال ارتجافا ، ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به فى الأرض قد طار حوله هباء ! »(٤٩) .

فهذا المشهد على ما به من الجزالة والقوة فى عمومه الا انك اذا تأملت مفرداته ونظرت فيها وجدتها غاية فى العذوبة والسهولة والسلاسة .

ويواصل النظم القرآنى حديثه عما يحدث فى ذلك اليوم فيقول : « فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية »(٥٠) .

فقوله : فى عيشة راضية ، يوقع فى النفس ظلال الرضا والاسترواح وهو غاية النعيم والتكريم .

وبعد أن ترق وتلين ألفاظ النظم فى الحديث عن الذين ثقلت موازينهم ، تعود فتقوى وتشتد على الفئة الأخرى التى لم تعمل حسابا لهذا اليوم ، فجاءت صحيفة أعمالهم خاوية خالية مما يقربهم من الرضا والنعيم .

ومن ثم كانت النار الحامية هى مصيرهم وأمهم التى يأوون اليها ، وانظر الى دقة القرآن فى اختيار ألفاظه وأناقته فى سردها « الهاوية — النار — الحامية » .

---

(٤٨) سورة القارعة آية ٤ ، ٥ .

(٤٩) فى ظلال القرآن لسيد قطب ٦/٣٩٦١ .

(٥٠) سورة القارعة من آية ٦ : ١١ .

ففى الكلمات تنسيق خاص يصور ما سوف يجـده الذى خفت موازينه عنـد أمه هـذه ، فهو واجـد الهاوية ، والنار الحامية بديلا عن الأمن والراحة التى توجد عنـد الأم الحقيقية .

« وهكذا تجـد ألفاظ القرآن الكريم مما يسهل على اللسـان ، ويعذب على الآذان ، تأتى معبرة موحية مصورة للمعنى خير تصوير ، ومؤدية للغرض خير أداء ، لها مقصد خاص لا يصلح مرادفها لأن يحل محلها ، ولم يزده مرور الزمن الا حفظا لاشراقها ، وسياجا لجلالتها وبهائها »(٥١) .

فالقرآن الكريم يستعمل الألفاظ التى تتفق مع المعانى ، ويعبر عنهـا أتم تعبير وأدقه .

ولا يأتى بلفظ لمجرد أنه رقيق عـذب ، ولا يؤثر آخـر لمجرد أنه جزل قوى بل لكل من هـذا وذاك موطن لابـد أن يأتى فيه .

فالرقة والجزالة يخضعان للمعانى الجزئية التى ترد فى النظم ، وللغرض الذى قصـده المولى تعالى دون سـواه من تلك المعـانى ، فنجدها ترق وتلين وتلطف حينـا ، ونجدها حينـا آخر تقوى وتشتد وتغلظ حسبما يرد فى النظم من حـديث ومعان يتعرض لها النظم ، كما رأينا فى سورة القارعة .

---

(٥١) قبس من البيان القرانى د/ محمد حسن شرشر ص ٨٥ ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ـ دار الطباعة المحمدية .

الخـــــاتمة

هـذه السـورة على الرغم من وجـازتها ، وقلة عـدد آياتها الا أنها حوت كل الأساليب البلاغية تقريبا •

فقد جـاء من بلاغة التراكيب : التعريف والتنـكير ، والأسلوب الخبرى ، والأسلوب الانشائى ، والفصل والوصل والاسناد الحقيقى ، والاسناد المجازى ، ووضع الظاهر موضع المضمر ، والايجاز والاطناب ، وغير ذلك من ألوان علم المعانى •

وقد جاء من الصور البيانية التشبيه الرائع والمجـاز اللغـوى البديع ، والكناية الجميلة •

وكان لكل أثره فى تصوير المعنى ، ونقـله فى صورة حسـية ملموسة •

كما جاءت المحسنات البديعية لتقوم بدورها فى تأكيـد المعنى ، وتقريره فى النفوس ، وقد جـاء منها المعنوى واللفظى ، مما زاد فى جمال السورة وبهائها ورونقها •

وأرجو العفو عما صـدر منى من خطأ أو نسيان ان كانت هناك كلمة سـبق بهـا القلم ، أو قيلت عفو الخاطر فى غير موضعها •

فما زانه من صواب وتوفيق فمن الرحمن وما شـانه من نقص وتقصير فمنى ومن الشيطان •

وآخر دعواى أن الحمـد لله رب العالمين ؟

مصـــادر البحـــث ومراجعـــه

ـــ أثر القرآن فى تطوير النقـــد • د/ محمد زغلول سلام •

ـــ أسرار البلاغة للامام عبد القاهر الجرجانى ـــ تحقيق السيد أحمد مصطفى المراغى ـــ المكتبة التجارية الكبرى بمصر •

ـــ اعجاز القرآن للباقـــلانى ـــ تحقيق السيد أحمد صقر دار المعارف بمصر ـــ الطبعة الرابعة •

اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للأستاذ مصطفى صادق الرافعى ـــ المكتبة التجـــارية الكبرى بمصر الطبعـــة السادسة ١٣٨١هـ ـــ ١٩٦١م •

ـــ اعراب القرآن وبيـــانه لمحى الدين الدرويش ـــ اليمـــامة دار ابن كثير ـــ ١٤٠٨هـ ـــ ١٩٨٨م •

ـــ الايضاح للخطيب القزوينى ـــ تحقيـــق الشـــيخ عبد المتعـــال الصعيدى مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز •

ـــ البحر المحيط لأبى حيان ـــ دار الفكر ـــ الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ـــ ١٩٧٨م •

ـــ البرهان فى علوم القرآن للزركشى ـــ دار المعرفة ـــ بيروت ـــ الطبعة الثانية •

ـــ البيان فى اعجاز القرآن للخطابى ـــ ضـــمن ثلاث رســـائل فى اعجاز القرآن ـــ دار المعارف بمصر ـــ الطبعة الثالثة •

ـــ البيان فى ضـــوء أساليب القرآن ـــ د/ عبد الفتـــاح لاشـــين الطبعة الثانية ـــ دار المعارف ـــ ١٩٨٥م •

- تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن لابن أبى الاصبع المصرى ٥٨٥ ــ ٦٥٤ تقديم وتحقيق د/ حفنى محمد شرف ويشرف على اصدارها محمد توفيق عويضة •
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ــ الدار التونسية •
- التكرير بين المثير والتأثير ــ د/ عز الدين السيد •
- جامع العبارات فى تحقيق الاستعارات تأليف أحمد مصطفى الطرودى التونسى ــ دراسة وتحقيق ــ د/ محمد رمضان الحربى الطبعة الأولى ــ ١٣٩٥هـ ــ ١٩٨٦م •
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ــ دار احياء التراث العربى بيروت ــ لبنان ــ ١٩٦٧م •
- حاشية الشهاب ــ المسماة عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى ــ دار صادر ــ بيروت •
- دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجانى تحقيق السيد رشيد رضا مكتبة القاهرة ــ ١٣٨١هـ ــ ١٩٦١م •
- شروح التلخيص للخطيب وآخرين ــ دار السرور ــ بيروت •
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى تحقيق ابراهيم عطوة ــ مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى ــ الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م •
- فى ظلال القرآن لسيد قطب ــ دار الشروق ــ الطبعة الثانية عشر ١٩٨٦م ــ ١٤٠٦هـ •

- قبس من البيان القرآنى د/محمد حسن شرشر ـ دار الطباعة المحمدية ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .
- الكشاف للزمخشرى ـ دار الكتاب العربى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .
- معانى التراكيب د/ عبد الفتاح لاشين ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .
- مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ـ دار احياء الكتب العربية ـ عيسى البابى الحلبى .
- المثل السائر لابن الأثير ـ تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ـ شركة ومكتبة مصطفى البابى الحابى ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م .
- النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز ـ الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م .
- النكت فى اعجاز القرآن للرمانى ـ ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثالثة .